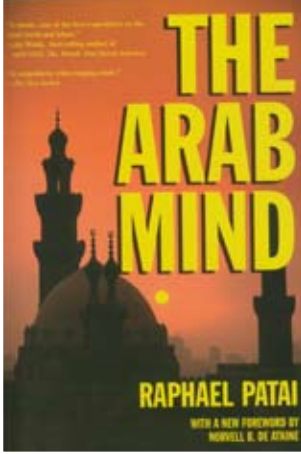


العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس



الفصل الثالث

أساليب تنشئة الطفل عند العرب

1. قضية القسوة

هل يوجد ما يمكن أن نسميه نمطا عاما لأساليب تنشئة الطفل في العالم العربي؟ إن هذا السؤال يتمتع بأهمية أساسية -وكما أظهرت ذلك أبحاث مختصي علم النفس الاجتماعي ببراكين ثابتة- لأن أساليب تنشئة الطفل تحتل موقعا ضمن أهم العوامل المساهمة في تشكيل الشخصية النمطية. وكما هو الحال دائما مع الأسئلة الأساسية فإن من الصعب جدا تقديم الإجابة على هذا السؤال. وفي الواقع، ولنقص المعلومات الكافية، لا يمكن تقديم إجابة محدودة على الإطلاق. وثمة عدد من الاعتبارات على الأقل تسمح بالتوصل إلى استنتاج أولي.

قبل كل شيء، يجد المرء أن ثقافتين منفصلتين عن بعضهما بشكل واسع كما هو الحال في المغرب والعراق تبدو متشابهتين تماما عند المقارنة مع الثقافة اليونانية أو الإيطالية أو الزنجية الصحراوية. وهذا التشابه الثقافي الأساسي، والذي ينضوي تحت سطح مظاهر الاختلافات المحلية، كثيرا ما يكون أمرا ملازما في التشابه الأساسي في أساليب تنشئة الطفل في كافة أرجاء العالم العربي.

ثانيا: في عدد كبير جدا من الدراسات المتعلقة بأجزاء مختلفة من العالم العربي يجد المرء بعض المشاهدات على الأقل عن أساليب تربية الطفل والتي تشير إلى نفس نوع التشابه الأساسي. وإحدى هذه المشاهدات التي تحدث عنها الكثير من المؤلفين هي العقوبة البدنية. فكل من عاش حياة الأسرة العربية عن قرب يتفق على أن تأثير قسوة

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

العقوبة البدنية المطبقة على الطفل العربي أكبر بكثير مما هو الحال في العالم الغربي.

وخلاصة هذا الدليل تجعل من المنطقي الاستنتاج بأنه: مهما يكن المدى الذي يبلغه اعتبار هذه الخصوصية لأساليب تنشئة الطفل، فإن ثمة عنصرا مشتركا حقيقيا للطريقة العربية العامة في تنشئة الطفل.

ثالثا: توجد بعض الدراسات -وهي قليلة العدد- للدقة- تتعلق بأساليب تنشئة الطفل في مجتمعات عربية معينة تقطن مواقع متباعدة عن بعضها بشدة مثل لبنان، فلسطين، مصر العليا، والجزائر. مما يعيدنا مرة أخرى إلى الاستنتاج بوجود نمط عربي عام لتنشئة الطفل تكون فيه الحالات المدروسة مجرد مظاهر محلية.

وإذا ما وضعنا الاختلافات المحلية والفردية جانبا، فإن الوضع العام للأسرة العربية يتمثل في أن الأب يمثل الطرف الشديد الصارم المتعصب، بينما على العكس، تمثل الأم الجانب المحب العطوف. إن هذا الاختلاف ما بين موقف الوالدين يشار إليه دائما في الأدب العربي، وبما في ذلك الأمثال والدراسات التي تتناول المجتمعات العربية، إلى حد لا يستطيع المرء معه أن يشك في انتشاره الواسع. وبسبب من هذا الاختلاف في تعامل كل من الوالدين مع الطفل، فإن الطفل يحترم -وحتى أنه يخاف- والده، وفي نفس الوقت يبني صلة عاطفية مع أمه. وفي حياة الأبناء والبنات على حد سواء، نجد أن حب الأم يحتل موقعا مهما، حتى أنه يستمر ما بعد الزواج.

إذا كان الوالدان يتعاملان مع أطفالهم بهاتين الطريقتين المختلفتين فمن المتوقع أن لا توافق الأم الحنون على المعايير التأديبية لزوجها. وفي الحقيقة، تشير تقارير من أماكن متعددة من العالم العربي بشكل صريح إلى محاولات الأمهات، سواء أكان ذلك من خلال مواجهة صريحة أم تدخل خفي، أن يمتنع الإفراط في الشدة من جهة الأب. ورغم ذلك وجدت دراسة حول الأمهات اللبنايات أنهن كن أقرب إلى الموافقة على الإجراءات التأديبية

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

للأب الشديد من الأب غير الشديد. وهنا ينبع السؤال: هل صدرت هذه الموافقة عن ثقافة تجعل المرأة تقول ذلك؟ إنهن في النهاية يعلمن أن الأب النمطي يجب أن يكون مؤدبا قاسيا. ولهذا فهن يوافقن إن مضى أزواجهن على هذا النمط. كما يمكن الافتراض بأن الأب الشديد مع أطفاله يكون شديدا مع زوجته. وعليه يقل احتمال تجرؤ زوجات الرجال الأشداء على التعبير بصراحة عن عدم موافقتهم على أساليب تنشئة أطفالهن. وذلك إذا قمنا بمقارنة هذه الحالة بحالة يكون فيها الأزواج أقل شدة.

2. التفاوت في تقييم الأبناء والبنات

تطرقت الحكم التقليدية العربية بكثرة إلى موضوع مرونة شخصية الطفل وما يستوجبه ذلك من الرغبة في تعريضها مبكرا إلى الظروف التي تشكلها. وثمة مثل شائع بين الفلاحين الفلسطينيين كما هو شائع في أجزاء أخرى من العالم العربي يقول: «الشخصية التي تتأثر بحليب الأم لا يغيرها إلا الموت». وثمة مثل آخر يقول محذرا: «قلب الطفل كالجوهرة الثمينة بلانقش: فهي مهيأة لتقبل كل ما ينقش عليها». إضافة إلى عدد كبير من الأقوال التي تصر إما على سهولة عملية تشكيل شخصية الطفل أو على رسوخ تأثيرات مرحلة الطفولة.

إن ما تنصح به الأمثال وتفرضه. يقوم العرف التقليدي بترجمته إلى ممارسة عملية. وبما أن العرب مقتنعون بأن مرحلة الطفولة المبكرة تؤثر بشكل رئيسي على تشكيل الشخصية. وبما أن تابعة الأنا تعود إلى سلطة الأب (و/أو الرأس الفعلي للأسرة) هي من أسس الصرح الاجتماعي العربي. فإن الأطفال يتم تمرينهم. وبشدة إن استدعت الضرورة. على جعلهم يتقبلون ويخضعون للنظام الأبوي. وكنتيجة لأساليب تنشئة الطفل عند العرب. فإن الطفل يتعلم كيف يخضع مصالحه الخاصة لمصالح الأسرة التي يمثلها الأب أو الجد.

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

وفي مناقشة هذه الأساليب يجب علينا منذ البداية أن نميز بين معاملة الأولاد ومعاملة البنات. حيث لا يوجد في اللغة العربية لفظ يعادل الكلمة الانكليزية (child) فكل كلمة في اللغة العربية إما أن تكون مذكرة أو مؤنثة. ومن هنا توجد كلمات تعادل (boy) ولد، (son) ابن، (girl) فتاة، (daughter) ابنة. ولكن لا يوجد معادل لكلمات أخرى مثل: (child, baby, infant, toddler). وما إلى ذلك من الكلمات التي تشير في اللغة الانكليزية إلى مراحل مبكرة من مراحل النمو الإنساني دون تحديد الجنس. وعند سؤال أي شخص عن أطفاله -في إحصاء سكاني مثلاً-: «كم طفلاً لديك؟». يستعمل المحصي كلمة (ولد = طفل ذكر). وبالتالي سيكون الجواب محددًا لعدد الأطفال الذكور. ثم سيكون على المحصي الخبير أن يسأل مرة أخرى: «كم (بنتاً) لديك؟» وبهذه الطريقة فقط يمكن الحصول على العدد الإجمالي لذرية الشخص المستفسر عنه.

وبما أنه ليس في اللغة العربية معادل لكلمة (أطفال)، وإنما كلمتا (أبناء) و(بنات) فقط، فإنه ليس ثمة (أطفال) في الوعي العربي أيضاً. وتبعاً لذلك، ليس ثمة ما يمكن أن يدعى أساليب لتنشئة (الطفل) في العالم العربي. بل هناك أساليب لتنشئة (الابن) من جهة، وأساليب لتنشئة (البنت) من جهة أخرى.

يبدأ التمييز بين الجنسين قبل ولادة الطفل، وحتى قبل الحمل. حيث تستحوذ على كل الآباء رغبة الحصول على طفل ذكر. وتتركز أمانى المهنئين في حفل الزواج على أن يحصل الزوجان على أطفال ذكور. وما أن تحمل الزوجة. تبدأ بالأمل والصلاة من أجل أن ترزق بطفل ذكر. وإذا ما جرت الأمور وفق المشتتهى وجاء الطفل الذكر. تتلقاه موجة عارمة من الفرح، أما إذا كان المولود أنثى فسيلحق العار بالأُم وتعلو التعاسة وجه الأب. وكانت التقاليد العربية القديمة تخير الأب بين أن يترك طفلته حية أو أن يدفنها تحت التراب (الوأة) وهي ممارسة شجبهها النبي محمد وذكرت في القرآن الكريم (16: 58-59).

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

وعلى الرغم من هذا التحذير الصادر من مقام ديني عالٍ، فإن تقليد قتل الأطفال الإناث استمر لعدة عصور وفي أماكن مختلفة غلبت عليها نزعة التطرف في المحافظة واستمر ذلك إلى بداية عصرنا هذا.

لقد أصبحت ظاهرة قتل الأطفال الإناث شيئا من الماضي، لكن الاعتقاد بأن المولودة الأنثى تجلب العار لأبويها استمر ضمن الأوساط المحافظة إلى وقتنا الحاضر. ويُعَيَّر الأب الذي لا أبناء ذكور لديه بأنه «أبو البنات». وبمرور الأشهر والسنوات يتحول حس الانكسار بولادة البنت تدريجيا إلى هاجس الخشية من أن تجلب البنت عارا لأبيها وأسررتها إذا ما خرفت المنظومة الأخلاقية. وفي بعض الأوساط العربية المتشددة في النزعة المحافظة، حيث ما يزال النظام الأبوي مسيطرًا بشكل كامل، نجد حالات معاصرة أقدم فيها الآباء على قتل بناتهم بسبب تصرف صدر منهن وجلب العار إلى عوائلهن. وبذلك يكون القتل غسلا للعار وفق القانون المحلي التقليدي (العرف).

إن الاختلاف في تقدير الأولاد عن البنات يتمظهر بأشكال أخرى من بينها ذلك التقليد واسع الانتشار الذي يقضي بالباس الطفل الذكر ملابس الأنثى حتى يبلغ سن الخامسة. وبما أن الطفل الذكر يحظى باهتمام كبير في المجتمع العربي فإن التقاليد تصر على أن يبقى معرضا للأذى من قبل «العين الضارة» أو «العين الحاسدة» التي يظن بأنها تضر كل ما تقع عليه وإن لم تكن تنوي إلحاق الضرر بالآخرين. ومع وجود وسائل أخرى لدفع تأثير «العين الحاسدة» مثل لبس التعاويذ وترك الطفل دون تنظيف أو ترتيب فإن «الوسيلة الأنجع» للحماية تتمثل في إعطائه شكل الأنثى: فالعين الحاسدة -برأيهم- لن تلاحظ شيئا بلا أهمية كما هو حال طفلة صغيرة.

تقود هذه الظاهرة إلى التخمين بأن هذا التقييم النسبي بين الطفل والطفلة يعبر عن نفسه باختلاف في المعاملة تجاه الأولاد والبنات. فالزوجة التي قدمت حديثا إلى العائلة (وهي تعامل في البداية وكأنها خادمة غير مأجورة) لا يتحسن وضعها إلا إذا أنجبت طفلا

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

ذكرا. والمرأة التي لم تنجب إلا إناثا تتشابه في وضعها مع من لم تنجب أصلا. ويلوح أمامها دائما شبح الطلاق وغالبا ما يتحول إلى حقيقة في كثير من الأمثلة المستمدة من كافة الشرائح الاجتماعية بما فيها شريحة النبلاء. فلا عجب إذن من أن الإحساس بالرضى العاطفي الذي يغمر نفس المرأة التي تقدم بفخر إلى زوجها وعائلته مولودا ذكرا ينعكس على موقفها تجاه طفلها. فتعامله بتساهل أكبر وترعاه بشكل أفضل وتعيه اهتماما أكثر وتغمره بعاطفة تفوق ما تقدمه لو كان المولود أنثى. وتبلغ هذه المعاملة المتميزة حدا يصل إلى إرساء مبدأ تربوي يطالب بتدليل الطفل الذكر دون الأنثى. وكما لاحظ بروثرو (E. T. Prothro) في دراسته حول تنشئة الطفل في مجموعات مختلفة عرقيا في لبنان فإن «في كل المجموعات كان الأطفال الذكور يعاملون بحميمية أكثر من الإناث.»

3. الإرضاع

إن الاختلاف في مدة إرضاع كل من الجنسين يعد من أهم مظاهر تفاوت معاملة الأولاد والبنات في مرحلة الطفولة المبكرة. كما يعد ذا تأثير مديد لا ينكر على تشكيل الشخصية والتوقعات المشتركة لما سيؤول إليه كلا الجنسين. وإذا طرحنا تفاوت المدة بحسب المجتمع المحلي جانبا. فإن الولد يرضع ضعف مدة رضاعة البنت: إذ يتلقى الولد رضاعة طبيعية لسنتين أو ثلاث. بينما تنخفض هذه المدة عند البنت إلى سنة أو سنتين.

إن السبب الكامن وراء هذا التفاوت غير عصي على الإدراك. فبما أن مدة الرضاعة يتم فيها تدليل الطفل بشكل تلقائي تقريبا - عن طريق تلبية متطلباته - وبما أن الأعراف والتقاليد تقضي بتدليل الولد لا البنت. فإن الأم تقوم - من خلال إنقاص مدة إرضاع البنت - فعليا بإنهاء مدة تدليل البنت. وثمة سبب آخر هو الاعتقاد الشائع بأن الأم التي ترضع طفلها لن تكون قادرة على الحمل إبان مدة الرضاعة. وبما أن الأم التي أنجبت بنتا تحس بخيبة الأمل. لذلك تظل ترغب بالحمل مرة أخرى بأسرع ما يمكن على أمل أن تقدم ولدا لزوجها وأهله. وبذلك تعوض الجميع - بما في ذلك نفسها - على انخفاض المنزلة الذي تسببت به ولادة البنت.

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

وفقا للنظام المتوارث المتبع في إشباع حاجة الرضيع تقوم الأم بحمل رضيعها عندما يبكي وتلقمه ثديها. وهي تحمله معها أينما ذهبت (على رأسها أو ظهرها أو متنها أو وركها). وتعتبر هذه المرحلة أشد المراحل حميمية. وفيها تكون الأم وطفلها أشبه بكائنين متعاشين. وتمثل استمرارا مباشرا للمرحلة التي كانا فيها أمرا واحدا قبل الولادة. ولا تختلف عن الحيوانات الجرابية إلا بنقصان مرحلة من مراحل النمو.

أما مرحلة الفصل الحقيقي بين الأم وطفلها فتأتي عندما يحين أوان الفطام. وعلى الرغم من أن الأم تواصل بعد ذلك إطعام طفلها أيضا. فإن العرب يكلفون البنت الكبرى بهذه المهمة. وبهذا تنتهي دائما علاقة التعايش بين الاثنين. ليختبر الطفل الشعور بالحرمان لأول مرة في حياته.

إن الحقيقة الأكيدة التي تتمثل في أن فطام البنت يحدث بوقت أبكر من فطام الولد تشير إلى تمايز حاسم في الخبرة الاجتماعية المبكرة التي يكتسبها كلا الجنسين. وهذا يترك أثرا لا يمحو في شخصيتيهما عند البلوغ. فبالنسبة للبنت تتلاشى ذكريات فترة النعيم المؤقت بتأثير صدمة الفطام وما يلي ذلك من معاملة الحياة الواقعية التي تتلقاها من أمها وباقي أفراد عائلتها مهما قربوا أو بعدوا. وفي غضون شهور قليلة تلي الفطام. تكون البنت قد استعدت لتقمص دورها الذي تلعبه في الحياة كامرأة: وهو دور التابع قليل الأهمية الذي حكم عليه بأن يأخذ موقع العبد وفقا للتقليد الذكوري الذي يسيطر على حياتها باسم الأب والإخوة والزوج والأولاد. ويتحدد مدى التبعية التي تتقمصها البنت في عامها الرابع أو الخامس من خلال حقيقة كونها تستفز والديها لتطبيق العقاب الجسدي عليها أكثر مما يفعل الولد الذي يبلغ نفس العمر.

أما بالنسبة للولد. فإن كلا من المعاملة الفعلية التي ينفرد بها والمهارات المستقبلية التي يطورها تعتبر مختلفة جذريا عن مثلتها لدى البنت. فبينما يواصل الولد تلقيه الرضاعة. يكون لدى الأم ميل لتدليله أكثر مما لو كان بنتا. وعندما يحين وقت الفطام

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

يكون قد تعلم المشي والركض واللعب والتحكم بقضاء الحاجة. والأهم من ذلك كله أنه يكون قد تعلم الكلام ولهذا يستطيع أن يطلب بلسانه الرضاعة متى شاء. وبما أن الأصول تقتضي قيام الأم بتدليل الولد وتلبية احتياجاته. فهذا يعني أنه يحصل -بالفعل- على الرضاعة متى شاء. وهكذا فإن التلفظ بحاجة أساسية لدى الطفل -وهي الرضاعة- يتبعها -غالبا- تلبية الحاجة. إن ذلك يتساوى في الأهمية مع الجانب النفسي للموضوع؛ فالتأكيد اللفظي على رغبة يحتوي في ذاته -وبشكل تلقائي تقريبا- ضمان تحقيق الرغبة دون الحاجة إلى أي تصرف إضافي من جانب الطفل. وتؤدي ممارسة هذا التصرف -بشكل يومي ولعدة أشهر- إلى ترك انطباع دائم في نفسية الولد. ولا يستبعد العثور على صلة ما بين هذا التصرف الطفولي وبين خاصية تتصف بها شخصية العربي البالغ والتي كانت محل الكثير من البحث والتعليق: ألا وهي النزعة إلى صياغة تأكيد لفظي يعبر عن نية ما. ثم العجز عن إتباع النية بأي عمل يؤدي إلى تحقيقها. ويبدو أنه. في سياقات وأوضاع خاصة على الأقل. يؤدي التلفظ بنية أو أمنية إلى تحقيق رضى نفسي. وهو ما يتحول في الواقع إلى عقبة في طريق تنفيذ العمل المؤكد لفظا. وسنطرح أمثلة على هذا النمط من السلوك في فصل لاحق مع أمثلة أخرى عن نقد ذاتي عربي في هذا المجال. وهنا نكتفي بالإشارة إلى وجود تشابه تام بين هذه الخاصية والثقة التي تنشأ في نفسية الأولاد العرب في ما يخص تأثير الإنجاز الحتمي للطلبات والرغبات والذي ينشأ عن مطالبته اللفظية بالحليب (خاصة إذا كان الطلب بصيغة لفظية مشددة). فعند كل من الطفل والبالغ ينبغي تحقيق ما تم التعبير عنه لفظا من أمنية أو نية أو طلب دون الحاجة إلى أي جهد إضافي. إذ أن كل المطلوب هو الكلمة لا غير. ثم ما على المتكلم إلا أن يسترخي ويترك الكلمة تفعل ما عليها من أجل تحقيق ما لفظت من أجله.

4. البدايات المبكرة للعلاقة ما بين الرجل والمرأة

تطبع فترة الرضاعة الممدة عقل الولد بصورة خاصة بانطباع شامل عن العلاقة ما بين الرجل والمرأة أيضا. فلمدة تصل إلى 3 سنوات. تكون الأم رهن إشارة ابنها دون كلل أو ملل.

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

تلقمه -متى شاء- ثديها الذي يشكل مصدر سعادته ورضاه. إن هذه الحياة التي يعيشها الولد تصبح -حتمًا- عاملاً مساعداً في صناعة النمط العام الذي يتوقع الولد أن تتطابق معه كافة علاقاته مع النساء في المستقبل. وهنا نكاد نقرب من منشأ موقف الشخصية العربية الذكورية من المرأة: وهو أن قدر المرأة بشكل عام، وبخاصة المرأة المنضوية في نطاق العائلة، يتمثل في خدمة الرجل وطاعته.

إن هذا الأمر المتوقع يتعرض إلى ترسيخ إضافي من خلال تجربة طفولية أخرى في السنوات الأولى من العمر. فعلى النقيض من البنت التي لا يثير بكاءها انتباهاً كبيراً نظراً لأنها ليست مؤهلة للتدليل، يؤدي بكاء الولد إلى حمله وإراحته، وعادة تتضمن عملية الإراحة والتهديئة تعاملًا مع الأعضاء التناسلية للولد، فتقوم الأم والجدة وباقي الأقارب والضيوف من الإناث بالإضافة إلى الأقارب الأبعدين، باللعب بقضيب الولد، لا من أجل تهديئته فحسب، بل من أجل مجرد حثه على الابتسام أيضاً. ومن أجل تهيئة الولد تدريجياً للختان، يشيع في أوساط الفلاحين في مصر العليا أن تقوم الأم بتمسيد العضو بشكل مرح محاولة منها في سبيل عزل القلفة عن الحشفة، وفي غضون ذلك تهمهم الأم بكلمات حول تأثير ما تقوم به في جعله رجلاً بين الرجال. وبما أن الختان يجري في مصر العليا عادة قبل البلوغ، فإن ذلك التمسيد قد يستمر بما فيه الكفاية في عمر ترسخ فيه ذكريات واضحة تبقى إلى ما بعد البلوغ.

بينما قد يكون هذا العرف بذاته ناتجاً عن تطور محلي، فإن الترابط ما بين الأم -وبالتالي المرأة بشكل عام- واللذة الجنسية يعتبر من الأمور التي يمر بها الولد العربي بشكل عام وتهيئته لتقبل الرأي النمطي الذي يدعي أن المرأة شيء جنسي في المقام الأول وأنها مخلوق لا يستطيع مقاومة الإغراء الجنسي. كما أن أكثر ما يحتج به لتبرير إجراء ختان الإناث (الذي يتضمن إزالة البظر أو معظم الجهاز التناسلي) والذي يجري في العديد من أرجاء العالم العربي، يتلخص في «تهديئة المرأة» بمعنى الحد من شهوتها الجنسية.

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

في الأدب العربي التقليدي نجد العديد من الإشارات إلى الهياج الجنسي عند المرأة. وباعتبار أن تلك الإشارات كتبها رجال (ولا يزال الوضع كذلك إلى وقتنا الحاضر) فإنهم -بالطبع- يعبرون بشكل أكثر جدارة بالثقة عن الهياج الجنسي للكتاب الذكور مما عليه الحال عند النساء اللواتي يكتبون عنهن. وكيفما كان ذلك، فإن السلوك الجنسي الجامح والشديد يمثل الافتراض الذي يقف خلف الفصل بين الجنسين، وهو الممارسة التي تمثل الركن الأساسي في العادات العربية، وفي كافة مكونات العرف العربي الضيق والمتزمت حيال الممارسة الجنسية. من النادر أن تتم مناقشة السلوك الجنسي الذكري في العلن، لكن الصورة التي يفترض الرجل العربي أنه يتمتع بها هي صورة الرجل الذي لا يستطيع إلا أن ينكح أي امرأة تدق بابه عندما تسنح الظروف لذلك. بالتالي، يحتم عليه العرف المتزمت للممارسة الجنسية أن يبتعد دائما عما يجعله معرضا للإغراء الجنسي. وتفترض العادات العربية أنه حيثما وحينما يصادف أن يختلي رجل وامرأة من عمرين مناسبين فإنهما لن يستطيعا مقاومة الانجرار إلى ممارسة الجنس وإن لم يكونا يعرفان بعضهما البعض من قبل، وحتى إن كانت الممارسة الجنسية تقود إلى عواقب شديدة السوء. والطريقة الوحيدة لمنع وقوع حالات كهذه هي القيام بعزل متزمت بما يجعل من المستحيل على الرجل والمرأة أن يختليا ببعضهما أبدا. إلا -بالطبع- إن كانا زوجين أو قريبين من الدرجة الأولى.

5. الولد يدخل عالم الرجال

تستمر الأم في تدليل ولدها حتى بعد انتهاء مدة الرضاعة، بما في ذلك مداعبة أعضائه التناسلية ومعانقته وتقبيله والإشادة به. وعندما يحين أوان الفطام يكون الولد قد تعود بشكل جيد على طعام آخر غير حليب أمه. وإلى جانب ذلك، يميل حليب الأم في هذه المرحلة إلى التوقف ويجد الولد تناقصا في العائد المقابل لما يقوم به من مص وجذب لثدي أمه.

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

إن العلاقة الدافئة الحميمية العاطفية التي تبديها الأم تجاه ولدها تصبح أهم علاقة لديه في هذه المدة (في عمر السنوات الأربع تقريبا). حيث يشرع الأب بإبداء اهتمام أكبر بولده. وتبدأ عملية تسليم الولد من عالم المرأة إلى عالم الرجل. ويعتبر هذا الاهتمام الأبوي من وجهة نظر الولد أمرا له منفعه ومساوئه. فالأب -مهما كان قدر المحبة التي يكنها لولده- عليه وفق العادات والتقاليد أن ينمي شخصية الولد. وعادة ما تكون المناهج الأبوية في التربية الاجتماعية ذات طابع قاسٍ. وما دام الولد تحت وصاية أمه أو من ينوب عنه من الإناث الأخريات كأخت أكبر سنا أو عمه أو جدة، فإنه -عموما- يمتلك الحرية لفعل ما يشاء؛ فالمهمة الأساسية -وربما الأولى- لهؤلاء النساء هي جعله سعيدا وإعطاؤه ما يريد ورعايته وتنفيذ نزواته ورغباته. أما في عالم الرجال الذي يمثله الأب فالأمور مختلفة جدا. فهنا يجد الولد نفسه فجأة في مواجهة مع قوانين صارمة. وبينما تهمل رغباته أكثر مما تنفذ. يجب عليه أن يتعلم تنفيذ رغبات أبيه وإطاعة أوامره وخدمته وحتى أن يصبح تابعا له.

ليس هذا التغير في الوضع أمرا يسهل الاعتياد عليه. وقد يتطلب ذلك وقتا طويلا -أعواما في الواقع- من أجل ترسيخ الدور الجديد للولد الذي أصبح شابا (والذي يبقى أصغر الجميع لمدة من الزمن). وعندما يحدث الصدام يتذوق الولد الطعم المر ليد أبيه الضخمة والعصا والسوط (والسيف والخنجر في أوساط القبائل البدوية حيث قد يتعرض للجروح والطعنات). وكل ذلك ليس من أجل معاقبة الابن على عصيانه فحسب. بل يتعدى ذلك إلى تزويده بالخشونة اللازمة لحياته المستقبلية. ولا عجب في أنه خلال هذه المدة التي يقاسي فيها الانتقال المؤلم إلى عالم الرجال. يهرع الولد إلى أحضان أمه هاربا من تأديب أبيه حيث يجد الراحة والحب والتدليل والأمان. ويستمر هذا التصرف إلى أن يدرك العيب في ذلك. وبهذا يكون الأب القاسي المؤدب على الضد من الأم الصفوح الحنون المحبة. ومن هنا تتطور الشخصية الناشئة للولد باتجاهين مختلفين: أحدهما يعبر عن صورته الذاتية

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

وموقعه في عالم الرجال الكبير. والآخر يقدم به نفسه إلى عالم النساء الصغير الذي يتكون من عدة أفراد هم: أمه وأخواته وجدته وباقي النساء من الأقارب القريبين.

حالما يتعلم الولد موقعه بالنسبة إلى أبيه، يكتشف الولد الشاب أن اختلاف السن يحتل الأهمية الكبرى في عالم الرجال. وذلك بخلاف عالم النساء حيث لا أهمية للعمر في المنافسة على خطب وده - وذلك بحدود طبعاً. حيث يتعلم بأن أصحاب الأمر هم -بالإضافة إلى والده- كل الرجال الذين يفوقونه سناً. ويدخل في ذلك حتى الأخ وابن العم الذي يكبره بسنة فقط. وفي الجانب الآخر يتعلم أنه يستطيع معاملة الأولاد الذين يصغرونه سنه باعتبارهم مأموريه - بالرغم من أنهم ليسوا مأمورين كمأمورية النساء- لكنهم يبقون أشخاصاً على قدر يقل عنه أهمية. وحالما يتعلم الولد هذه الدروس. وعلى افتراض أنه أتقنها، فإنه يباشر التصرف وفق الشخصية العربية الذكورية النمطية.

6. البنت تبقى في عالم النساء

في الجانب الآخر، تعاني البنت انتقالاً مؤلماً من بيئة الطفولة إلى عالم مختلف. فما لم يتزوجها ابن عمها، تقاسي البنت نوعاً آخر من الانتقال لا يقل إبلاماً في كثير من الحالات. وذلك بأن عليها أن تواجه وتنجو من مخاطر الانتقال من الرعاية اللطيفة والمتسامحة لأمها إلى سلطة حماتها القاسية والمشوبة بالغيرة. وبينما تكون في بيت أبويها، تتعلم البنت كيف ترضى بما تعتبره الفتات المتبقي من محبة أمها بعد أن يحصل الأولاد على النصيب الأوفى. وبعد أن تتزوج تقارن المعاملة التي تتلقاها من حماتها مع معاملة أمها وتستننتج أن معاملة أمها كانت ولا زالت تجسيدا للمحبة واللطف. أما في حالة زواج البنت من ابن عمها، وإذا ما سكنت في بيت يضم أبويها وأبوي زوجها حيث يعتبر الجد زعيم العائلة، فإنها تقاسي دوماً الانتقال القاسي من أمر رفيق إلى أمر قاسٍ. وبما أنها تعيش في نفس البيت أو المجمع مع أمها، بالإضافة إلى موقعها بالنسبة إلى والد زوجها باعتبارها كخته وابنة أخيه، فإن ذلك يحميها من أن تقسو عليها حماتها بشدة.

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

أما في حالة عدم زواج البنت من ابن عمها، فإن العروس الصغيرة تعاني مصاعب جمّة. وتعرض كافة المهارات التي تعلمتها من أمها وأخواتها الأكبر سنا إلى امتحان عسير: فهل يمكنها أداء كافة واجباتها كزوجة؟ هل تستطيع جلب الماء من بئر القرية، وطحن الذرة، وعجن العجين، وصنع الخبز؟ هل يمكنها ذبح دجاجة وتنظيفها وطهوها؟ هل تتمكن من أن تصنع الزبدة، وتجعل الروث أقرصا للوقود؟ أيمكنها أن تغزل وتنسج وتخيّط؟ وهل هي على قدر من القوة يمكنها من مساعدة زوجها في حراثة الأرض وزراعتها وحصاد المحصول؟ وقبل كل ذلك: هل هي قادرة على إنجاب الأولاد؟ إن عجزت الزوجة الشابة عن أداء أي من هذه الواجبات - وخاصة إنجاب الأولاد - يعني فشلها كزوجة ويؤدي إلى إمكانية وحتى احتمال تعرضها للطلاق.

لكن رحمة الله وعنايته تجعل معظم الزوجات يلدن الأولاد البنات، ومع مرور الوقت تتعلم الزوجة الأعمال المنزلية الروتينية لإرضاء حماتها وتحسن حياتها، وعاما بعد عام، تتحول الزوجة الصغيرة إلى سيدة شابة، ويعطيها موقعها كأم للأولاد مكانة تتعزز حصانة وتأثيرا في أسرة زوجها.

بشكل عام يمكن القول بأن عملية البلوغ، وخاصة في ما يتعلق بالانتقال من عالم الأطفال إلى عالم البالغين، تتسم بأنها أسهل للبنت مقارنة بالولد. فالبنسبة للولد يكون هذا الانتقال تخليا عن عالم النساء حيث كان يحظى بالحماية والتدليل والإعجاب، إلى عالم الرجال حيث يخضع إلى مراقبة دقيقة ويتوجب عليه تعلم المنافسة والدفاع عن نفسه. وكما يوصي المثل العربي المتداول، فإن على الرجل أن لا يكتفي بمساعدة أخيه ضد ابن عمه، وأن يقف ضد أخيه عند الحاجة. أما البنت، فنزوجها يعني انتقالها من منزل أمها إلى منزل حماتها، لكنها تبقى في الحالتين ضمن عالم النساء، ونفس الفضائل التي كانت تعد معيارا لتقبلها وتقديرها في المنزل الأول، تؤدي المهمة ذاتها في المنزل الثاني. وعلى الرغم من كثير من الأمثال العربية حول المرأة، والتي تعبر بصورة نموذجية عن طموحاتها ومخاوفها، وأفراحها وأحزانها، لا نجد أمثالا تقدم نظيرا أنثويا للمثل السابق.

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

كأن نجد مثلاً يقول: «أنا وأختي ضد ابنة عمي، أو أنا ضد أختي». وعلى الرغم من أن الإخوان ينتمون إلى نفس العائلة ونفس السلالة وغالباً يسكنون في نفس المنزل ومهما تعمقت الصلات العاطفية بينهم، فإن الأخوات يبقين على صلة في ما بينهما رغم عيشهن في بيوت متفرقة مع أزواجهن.

7. مكافآت الطفولة وإنجازات البلوغ

بينما يركز بعض علماء الأنثروبولوجيا من ذوي الاتجاهات الفرويدية انتباههم على جوانب عاطفية وانفعالية كالتشدد والتساهل حيال الفطام والتدريب على قضاء الحاجة والجنس والاستقلالية، يشدد آخرون على جانب مختلف. وهو الحاجة إلى تحقيق إنجاز. بالإضافة إلى وجود رابط ما بين علاقة الأم بالطفل وشدة حاجة الطفل إلى تحقيق إنجاز. وعلى هذا الأساس تم الافتراض بأن من نتائج الحاجة للإنجاز: النمو الاقتصادي، وبناء على ذلك صيغت علاقة سببية ثلاثية المراحل: أساليب تنشئة الطفل ⇨ الحاجة للإنجاز ⇨ التطور الاقتصادي. وتتمحور معظم النظرية حول ما يلي:

«إن الاختلافات في معدل النمو الاقتصادي في بلدان مختلفة قد يكون راجعاً لا إلى

الموارد الطبيعية أو رأس المال المتاح للاستثمار أو المهارات التقنية فحسب، إنما

لمقدار دافع الحاجة للإنجاز الموجود لدى أفراد أمة بعينها.»¹

ما الذي يؤدي إلى هذه الاختلافات الواضحة في الحاجة للإنجاز ما بين ثقافة وأخرى؟ تتمثل الإجابة التي يقدمها مختصو الأنثروبولوجيا وعلم النفس من مدرسة الثقافة والشخصية في وجود عامل مهم يحدد المدى الذي يقوم ضمنه الوالدان -الأم خاصة- بمكافأة طفلها على إنجازها. وبإيجاز يمكن القول بأنه وجد ترابط إيجابي بين مكافأة الوالدين للطفل وإنجازاته عندما يبلغ. والظاهر أن هذه المكافأة تعزز إلحاح الحاجة للإنجاز

(1) ادوين بروثرو (Edwin T. Prothro): تنشئة الطفل في لبنان: ص25.

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

لدى الطفل. والطفل الذي يتلقى دائما مكافآت من والديه لما ينجزه تتعزز لديه الحاجة للإنجاز إلى مدى يمكنه من نقل هذه الحاجة إلى حياته المقبلة كبالغ.

هل يمكن إيجاد ترابط من هذا النوع ما بين المكافأة على الإنجاز في مرحلة الطفولة وبين سجل إنجازات الفرد عند البلوغ في العالم العربي؟ هذا أحد الأسئلة التي عزم بروثرو على الإجابة عنها في دراسته التي حملت عنوان (تنشئة الطفل في لبنان). وهنا ينبغي الانتباه إلى التركيب الإثني غير المتجانس للشعب اللبناني. ورغم أن لبنان يعد -بلا شك- أكثر الدول العربية تقدما من ناحية موقفه تجاه الحضارة الغربية والحداثة، فإن هذا الموقف يتفاوت بشكل واضح ما بين الإثنيات المختلفة. ويرى بروثرو أن القرويين المسلمين هم المكون الأكثر محافظة. ويليهم في ذلك القرويون المسيحيون. ثم الحضريون المسلمون. وأخيرا يأتي الحضريون المسيحيون الذين يعدون المكون الأكثر ميلا إلى الحضارة الغربية في هذا البلد.

باستعمال هذا التنوع الإثني والثقافي كان بروثرو يأمل في اكتشاف ما إذا كانت هذه الاختلافات الثقافية تظهر في مرحلة الطفولة المبكرة. وطبق في ذلك استبياناً أجراه على عدة مئات من الأطفال اللبنانيين الذين يبلغون الخامسة من العمر وينتمون إلى مجموعات مختلفة عرقياً ودينياً: من العرب السنة، والعرب الروم الأرثوذكس، والأرمن الغريغوريين (الأرثوذكس). كما قسم كل مجموعة من المجموعات السابقة إلى فرعين: حضري (بيروت)، وقروي (الوادي). وكان الغرض من الاستبيان تحديد (أو تقدير) المستوى العقلي لهذه المرحلة العمرية ومقارنة أداء المجموعات الثلاث. وجد بروثرو أنه بمقارنة الأطفال الذين ينتمون إلى نفس الطبقة الاجتماعية (حضري أو قروي) كانت هناك اختلافات واضحة بين الطوائف الثلاث حيث حقق الغريغوريون أعلى النتائج وتلاههم الأرثوذكس ثم السنة.

وباكتشافه لهذه الاختلافات ما بين الأعراق في عمر مبكر (خمس سنوات)، انتقل بروثرو ليركز على احتمال وجود ارتباط بين الاختلافات في ممارسات تنشئة الطفل وبين إنجازات

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

البلوغ. وفي ما يتعلق بـ«الاختلافات العرقية في المجال الاقتصادي» يعدد بروثرو عددا من الأمور التي تجعل اللبنانيين الأرمن سباقين كمبدعين في مجال الأعمال ويقدمون أكثر من غيرهم على القيام بفعاليات تعليمية وثقافية. ويأتي العرب المسيحيون في المرتبة الثانية من ناحية المشاريع الاقتصادية والإبداع والسيطرة. ثم يأتي العرب المسلمون في المرتبة الثالثة. إن التصنيف مثل «الأرمن» و«العرب المسيحيون» و«العرب السنة» أكثر شمولاً من مجموعات (الأرمن الغريغوريين الأرثوذكس) و(العرب الروم الأرثوذكس) و(العرب المسلمين السنة) والذين طبق بروثرو استبيانهم على أطفالهم. ومع ذلك فإن عامل الهوية مهم جدا في نظام التصنيف بين مجموعات الأطفال والبالغين في المجموعات الثلاث السابقة. ومع أخذ الاحتياطات اللازمة يمكن القول بأن المجموعة التي سجل أطفالها أعلى معدل في استبيان بروثرو سجل بالغوها أعلى معدل في ما يخص الإنجاز.

وفيما يتعلق بالتساؤل حول العلاقة ما بين الإنجاز وممارسات تربية الطفل. لاحظ بروثرو وجود اختلافات بين المجموعات الثلاث في ما يخص تواتر المكافأة على إتمام المهمات. ووجدت دراسات أمريكية أن الاستخدام المتكرر لأسلوب المكافأة يميز أساليب تنشئة الطفل لدى الأمهات في المجموعات ذات المعدل العالي من الإنجاز. وفي لبنان. قالت غالبية الأمهات من الأرمن الغريغوريين والعرب الأرثوذكس بأنهن يكافئن السلوك الجيد لأطفالهن بانتظام. بينما قالت غالبية الأمهات من العرب المسلمين السنة أنهن لا يقمن بذلك. بل إنهن علاوة على ذلك يعتمدن على أسلوب التهديد بشكل يفوق الأمهات الأخريات. كما وجدت اختلافات في نظرة الأمهات للسلوك المستقل والمسؤولية عند أطفالهن. حيث تنمي الأمهات الأرثوذكسيات والغريغوريات الاستقلالية لدى أبنائهن الصغار إلى درجة تفوق ما تفعله النساء المسلمات في هذا المجال. وهذا يثبت نظرية بأن هذه الممارسة تميز المجموعات ذات المعدل العالي من الإنجاز.

ووجد بروثرو أخيرا أنه في مجموعة الأرمن الغريغوريين والعرب الروم الأرثوذكس في بيروت. يلعب الأب دورا أقل في تدريب الطفل مما هو عليه الحال عند اللبنانيين بشكل

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

عام وعند العرب المسلمين السنة في منطقة الوادي بشكل خاص. ومن هنا يتبين أنه في الجماعات ذات المعدلات العالية من الإنجاز يكون الأب أقل تأثيراً على الطفل مقارنة مع الجماعات الأخرى. حيث تترابط السيطرة الأبوية الأقل -في لبنان كما هو الحال في أمريكا- مع معدلات عالية من الإنجاز.

من بين الطوائف اللبنانية المسيحية، يعد الأرمن أكثر تحضراً. فهم على الأغلب أصحاب حرف وتجار صغار وموظفون في مكاتب، ولا يزالون يعيشون حالة لافته من العزلة على الصعيدين الثقافي واللغوي، مفضلين أن يكونوا (أمة في المنفى) على أن يذوبوا في المكون المسيحي العام. لقد وصل الأرمن إلى لبنان بعد الحرب العالمية الأولى وهم معدمون، لكنهم تحولوا بعد ذلك سريعاً إلى أثرياء. وهم يتميزون بسوية عالية من الأخلاق والثقافة، كما هو الحال بالنسبة لحيويتهم وقدرتهم على مكافحة الصعاب.

من المستحيل التحديد الدقيق للصلة بين هذه الخصائص التي تتسم بها الشخصية النموذجية للبنانيين الأرمن وبين أساليب تنشئة الطفل التي وجدها بروثرو لديهم، لكن يمكن التأكد من أمرين هما:

1. إن الأساليب الخاصة المتبعة في تنشئة الطفل جزء لا يتجزأ من التقاليد الثقافية التي يصر الأرمن على اتباعها.
2. الأساليب السابقة نفسها تضمن -دون ريب- استمرار الشخصية الأرمنية النموذجية الخاصة.

كلا المجموعتين الأخريين التي درسهما بروثرو تنتمي إلى العرب، رغم أن إحداها مسيحية (الروم الأرثوذكس) والأخرى مسلمة (المسلمين السنة). ويحمل الروم الأرثوذكس بشكل عام توجهها شرقاً أوسطياً أكبر مما لدى الطائفة المارونية التي تفوقهم حجماً، ويسكن معظمهم في القرى (خاصة في منطقة الكورة شمال لبنان)، لكن قسماً كبيراً

العقل العربي

الفصل الثالث: أساليب تنشئة الطفل عند العرب

العدد وغنيا منهم يعيش في بيروت. أما المسلمون السنة فهم أكبر الطوائف المسلمة عددا في لبنان، ويأتون بعد الطائفة المارونية من حيث العدد على مستوى لبنان، وهم يشكلون في بيروت ثلث عدد السكان، بالإضافة إلى أغلبية السكان في طرابلس ومحيطها. أما في القرى، وبخاصة في شمال لبنان، لا يزال معظم السنة يعتمدون على طبقة عليا صغيرة تتكون من أسر شبه إقطاعية «مرموقة». وفي المدن يشكلون جزءا كبيرا من طبقة العمال، بالإضافة إلى وجود طبقة برجوازية سنية من التجار وأرباب الحرف.

ليس هناك من شك في أن الترابط والتكامل ما بين أساليب تنشئة الطفل وديمومة الشخصية القومية (أو الاجتماعية) أمر موجود ضمن العرب الروم الأرثوذكس والعرب ولكنه لا يصل إلى نفس الدرجة الملاحظة عند الأرمن. وهذا يأتي من القول بأنه -عند الحديث عن السنة لوحدهم بما أنهم أقرب إلى العرب على المستوى العام- نجد أن الأساليب الخاصة لتنشئة الطفل التي اكتشفها ووثقها بروثرو وكانت من وظائف تقاليدهم الثقافية، إنما هي مسؤولة -جزئيا على الأقل- عن الخصائص التي يختلفون فيها عن الروم الأرثوذكس والأرمن. ونذكر من هذه الأساليب على سبيل الإيجاز: أن الأم من العرب السنة من النادر -نسبيا- أن تكافئ طفلها على إنجازها الناجح، وإنما تستعمل التهديد بالعقاب أكثر الأحيان (مع أنها تفشل في تنفيذ تهديداتها دائما)، كما يندر أكثر أن تربي طفلها على الاستقلالية، وتدع الأب يفرض سيطرته على الطفل. إن هذه الأساليب يجب أن تكون ميدان البحث عن العامل في تنمية تلك الشخصية المحددة التي يتصف بها اللبناني السني في طفولته وبعد بلوغه.

قام بروثرو بتحديد مجموعة من الخواص التي تميز هذه الشخصية القومية، ومنها: أن السني يتأخر عن المجموعتين المسيحيتين الآخرين فيما يتعلق بمستوى الإنجازات الاقتصادية، وربما يتعدى ذلك إلى المجالات التعليمية والثقافية أيضا. وبما أنه تم اكتشاف الارتباط ذاته في أمريكا بين أساليب تنشئة الطفل والإنجاز، يبدو أنه من الجائز أن نستنتج وجود علاقة (سبب ونتيجة) ما بين الاثنين.